

سورة الأنفال

[توجيهات حربية للمؤمنين]

﴿١٤﴾ قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا
 مُتَحَرِّفًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ
 اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ
 اللَّهَ قَتَلَهُمْ ؕ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ؕ وَلِيُبَيِّنَ
 الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ؕ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾
 ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ
 جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ؕ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ؕ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدَ
 وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ
 ﴿١٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ
 وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا

يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ❁ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۗ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ❁ [الأَنْفَال: ١٥-٢٦]. [٣٤]

[شرح ٢٤] يُبَيِّنُ رَبُّنَا عِزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ أَحْكَامًا كَثِيرَةً، وَشَوْوَنًا عَظِيمَةً، إِذَا أَخَذَ بِهَا أَهْلُ الْإِيمَانِ اسْتِقَامَ لَهُمْ أَمْرُهُمْ، وَصَلَحَتْ لَهُمْ دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ، كَمَا يَبِينُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مَا يَجِبُ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ عِنْدَ لِقَاءِ الْكُفَّارِ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمُ التَّصْمِيمُ وَالصُّدُقُ فِي لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ وَجِهَادِهِمْ، وَالْحَذَرُ مِنَ الْإِنْحِرَافِ وَالتَّوَلَّى عَنِ أَعْدَاءِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَتَأْتِيهَا =

= الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
 الْأَذْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدِ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ
 مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ
 وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ وهذا يُبين أن الواجب المُضيُّ قُدماً عند لقاء
 الأعداء، وعدم التولي، وأن يكون المؤمن في غاية من النشاط
 والقوة في مساعدة أولياء الله، وإعانتهم على قتال أعداء الله، ولا
 يحمّله الجُبْن وخوفُ الموت على التأخُّر والتولي عن أعداء الله، بل
 يُقدم وَيَصبر وَيُصابِر، والله سبحانه وتعالى مع المؤمنين بنصره
 وتأَييده، فهو سبحانه فوق العرش ولكنه مع أوليائه بالنصر
 والتأييد والتوفيق والترشيد.

والمَعِيَّةُ مَعِيَّتَانِ، مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ: وَهِيَ مَعِيَّةُ اللَّهِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ، وَمَعَ
 الصَّابِرِينَ، وَمَعَ الْمُحْسِنِينَ، وَمَعَ الْمُتَّقِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي
 مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وَقَالَ أَيْضًا: ﴿لَا تَحْزَنْ
 إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ
 الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] =

= [١٩]، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فمن صبر على جهاد أعداء الله، وصبر على أداء حق الله، فالله معه سبحانه وتعالى بالتأييد والنصر والتوفيق، وشرح الصدر، وإنزال الرُّعب في قلوب الأعداء، فالله ينصر أوليائه بأنواع من النصر، ومن التثبيت على القتال، وشرح الصدور، وتقوية الإيمان، والإمداد بالملائكة، وما يُوقعه سبحانه في قلوب الأعداء من الرعب والضعف وعدم الثبات، فهو ناصرٌ أوليائه ومعينهم سبحانه وتعالى، ومعية عامة وهي لجميع خلقه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

ويبين جل وعلا أن المتحيز إلى فئة أو المتحرّف لقتال، ليس ممن يوليُّ الأدبار، فإذا تحرّف أحد المجاهدين من مكان إلى مكان ومن صفٍّ إلى صفٍّ لتهيأ للقتال وليساعد إخوانه على أكمل ما يكون، فليس هذا بإدبار، كذلك من انتقل من جهة إلى جهة، ومن صف إلى فئة لأجل المقاتلين، لأمر دعا إلى ذلك، لا فراراً من القتال، وولي الأمر ينظر في تدبيره وتوجيهه إلى الجهة التي يراها، =

= فولي الأمر فئة ومرجع، كما قال النبي ﷺ للناس: «أنا فئتكم»^(١).

وبيّن سبحانه وتعالى أيضاً أن المؤمنين لم يقاتلوا الناس بقوتهم ولا بجهدهم فقط، بل الله معهم سبحانه وتعالى، فهو الذي سدّد قتلهم، وصوّبه حتى أصابوا العدو فانهزم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فالأمر بيده جل وعلا، فهو مسدد العباد وموفّقهم، وليس الإنسان بمجرّد كونه أعملّ السلاح، أو كونه قابلاً للأعداء، أو أطلق الرمية - يجب أن ينجح، فقد يقاتل الأعداء ولا ينجح، وقد يطلق الرمي ولا ينجح، وقد يضرب بالسيف ولا ينجح، فالأمر في حد ذاته يرجع إلى الله عز وجل في تسديد إصابة الرمية وتوفيق الرامي للنجاح في قتاله ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴿فهو الموفّق للمقاتلين وللمجاهدين حتى ينشطوا وحتى يقووا، وحتى تصيب ضرباتهم ورمياتهم لأعداء الله عز وجل، وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن لا تصيب طاشت، وسلم المقاتل، كما هو واقع في مواقع =

(١) أخرجه الترمذي: الجهاد عن رسول الله (١٧١٦).

= كثيرة وحوادث كثيرة.

ويُبيِّن جَلَّ وعلا أنه مع المؤمنين بنصره وتأييده حتى لا يجْبُنوا وحتى لا يَضْعُفُوا، وأنه سبحانه وتعالى يُقَدِّر ما يقدر من الابتلاء والامتحان ليُبَيِّنَ المؤمنين بلاء حسناً، ولينظر جهود الصابرين، وصدق الصادقين، وصبر الصابرين، وذكر الذاكرين، وغير ذلك، ويبتلي هؤلاء بهؤلاء وهؤلاء بهؤلاء، حتى يتبين من هؤلاء المؤمنين صدقهم ونجاحهم وثباتهم وقوتهم وصبرهم وإقدامهم، وحتى يتبين من الكذابين والمنافقين إجحامهم وجبنهم وخورهم وضعفهم وتأخرهم، فهو ابتلاء وامتحان ليرفع أقواماً ويضع آخرين سبحانه وتعالى، ليرفع أهل الصبر والإيمان والمواظبة والإقدام، ويضع أهل الجبن والخور والضعف والتأخر والانحراف.

وكذلك يُبيِّن سبحانه وتعالى ما يجب على المؤمنين من طاعة الله ورسوله، وما الواجب من طاعة الله ورسوله، وأنه سبحانه وتعالى إذا شاء وفق قوماً فأسمعهم الحق وثبتهم عليه، وإذا شاء =

= خذل آخرين من أعمالهم القبيحة وصفاتهم الذميمة.

وبيّن سبحانه أن شر الدواب عند الله هم الصم البكم، من البشر والجن الذين لا يبألون بالحق ولا يستمعون له ولا ينطقون به، بل هم في غاية من الصمم والبكم عن الحق، فلا أذن تسمع وتصغي، ولا لسان ينطق بالحق ويدعو إليه، بل هم في شر عظيم، وهم من أخطب الدواب، والإنسان دابة تمشي على قدميها، لكن الله يكرمه بالحق والهدى إذا استقام، فيكون من خير الناس ومن أفضل الناس، ويهينه ويذله إذا مال عن الحق والصواب، فيكون من شر الدواب، نعوذ بالله.

ثم بيّن جل وعلا أن الاستجابة لله وللرسول فيها الحياة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فالحياة في طاعة الله ورسوله، والاستجابة لله وللرسوله، ومن أعرض عن ذلك فهو في غفلة، وإن لم يشعر بذلك، فلموت قلبه وانحرافه، قال جل وعلا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، =

= فالحياة الطيبة في طاعة الله ورسوله، والشقاء والهلاك والموت في الإعراض عن الله ورسوله، وعدم طاعة الله ورسوله. ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فالله جعل الوحي روحاً، يعني: أن الوحي الذي جاء به النبي محمد ﷺ روحٌ تحصل به الحياة، ونور تحصل به البصيرة، فمن فاته هذا الوحي ولم يوفق للانتفاع به وللاستفادة منه، فهو لا يزال في ظلمته، وفي موته، فالحياة والنور والسعادة والبصيرة في قبول هذا الوحي والانتفاع به والاستفادة منه والسير عليه. وأما إذا أعرض عن ذلك فإنه تفوته الحياة الطيبة ويفوته النور، كما قال عز وجل: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيسًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فمن قبل الوحي واهتدى بهدى الله فقد حصلت له الحياة، ومن تعلم وتبصر في الدين حصل له النور، فإذا أعرض عن ذلك فلم يقبل الحق ولم يتبصر فيه ولم يتفقه فيه، فقد فاتته الحياة وفاته النور، نعوذ بالله من ذلك، ونسأل الله السلامة.